

التطور السياسي للمغرب الأقصى في عهد الوطاسيين والسعديين والعلويين

عرف المغرب الأقصى تحولات عميقة مطلع القرن السادس عشر الميلادي كان من مظاهرها التفكك السياسي لدولة المرينيين والوطاسيين وظهر القوى السياسية الدينية المتمثلة في السعديين والعلويين حيث استقر الأمن للسعديين في نهاية القرن السادس عشر الميلادي وبداية القرن السابع عشر وبعد ضعفهم تمكنت الأسرة العلوية من الوصول للسلطة وحكم البلاد في ظروف متقلبة تميل الى القوة والاستقرار حيناً والى الضعف والانقسام حيناً آخر مما اسهم في حالة التراجع التي شهدتها المغرب في عهده المعاصر سياسياً وحضارياً ومهد لخضوعه للاستعمار .

أولاً: أوضاع المغرب مطلع القرن السادس عشر الميلادي

كان المغرب مثل الجزائر يعيش في أزمة شديدة في مطلع القرن السادس عشر الميلادي تسببت فيها الصراعات الداخلية والتحرشات الأجنبية ولم تنتهي بانهيار الوطاسيين ومجيء السعديين بل امتدت الى القرن السابع عشر الميلادي ويمكننا ان نبرز الملامح العامة للمغرب في النقاط الآتية .

1- الناحية السياسية :

كانت إمكانيات الوطاسيين الذي آل اليهم الحكم في المغرب في الربع الأخير من القرن 9هـ -15م محدودة فعجزوا عن بسط سلطتهم على كامل أجزاء المغرب وتوفير الأمن والاستقرار له بحيث تجزا المغرب الى وحدات سياسية صغيرة كثيرة تحت زعامات قبلية او دينية او مجالس محلية مستقلة ونذكر منها على سبيل المثال لا الحصر في الشمال والجنوب الشرقي امارات بني راشد في شفشاون وال المنظري في تطوان و في وسط المغرب وغربي الوسط امارات ابن حدو واخيه أبي فارس في الجبل الأخضر وابن عامر في تنسيطة و جمهوريات مدن تافرة والجمعة وأزمور وفي جنوب المغرب وغربة نذكر امارات آل شنتوف في مراكش ومولاي ادريس الهنتاني في الاطلس الكبير ونفوذ الشيخ ابن المبارك في اقة

وأدى التجزؤ الكبير الذي آل اليه المغرب وعجز الوطاسيين الى تشجيع البرتغاليين والاسبان على المضي فيما شرعوا فيه من غزو وتخريب واحتلال لمدنه الساحلية بغية تحقيق أهدافهم المختلفة ومنها الهيمنة على خيرات المغرب الاقتصادية واتخاذ قواعد عسكرية استراتيجية تشرف على المتوسط والمحيط الأطلسي والقضاء على القرصنة ونشر المسيحية وان كان البرتغاليون سبقوا الاسبان في مد نفوذهم الى السواحل المغربية فان الاسبان الدين استكملوا وحدتهم سنة 1469 دخلوا في منافسة قوية مع البرتغاليين بإقدامهم

على احتلال منطقة وادي نون التي بنو بها حصن سانتا كروز سنة 1478 ثم راموا التوسيع في غيرها وقد وقعا الطرفان على اتفاقيات تفاهم لتقاسم النفوذ بينهما سنة 1494 وذلك تركز الغزو البرتغالي على المضيق والاطلسي بينما تركز الغزو الاسباني على البحر المتوسط وقد بلغ الغزو البرتغالي والاسباني للشواطئ المغربية ذروته في العقدين الاولين من القرن 16م -10هـ حيث قام الاسبان باحتلال غساسة في سنة 1504 بعد ان احتل قبل ذلك مدينة مليلة في سنة 1497 ثم احتلوا حجر بادس في سنة 1508 وكلها تقع على المتوسط واحتلوا مواقع عديدة على الشواطئ الجزائرية أما البرتغاليون فاحتلوا مدينة ماسا في سنة 1497 ثم موقع مازكان في سنة 1502 فأغادير في سنة 1505 وموكادور سنة 1506 وأسفي في سنة 1508 وأزمور في سنة 1513 وتطلعوا في سنة 1515 الى احتلال مدينة مراكش ولكن حملتهم عليها باءت بالفشل .

2- الناحية الاقتصادية:

ان ميل المغرب الى التجزؤ وتعرضه للغزو نجم عنه اضطراب شديد للأمن مما أثر كثيرا على كل الأنشطة الاقتصادية فيه فالتجارة الداخلية بين المناطق تأثرت باضطراب الامن في الطرق والأسواق بحيث بات من حسن الحظ ان تنجو قافلات التجار من الاعتداء عليها اما التجارة الخارجية بين المغرب وأروبا وبينه وبين بلاد السودان التي كانت احد مصادر الرخاء للمغرب فتأثرت هي الأخرى بالغزو والاحتلال الذي تعرضت له المنافذ البحرية التي كان المغرب يتاجر من خلالها مع الدول الاوربية ولم تسلم تجارة المغرب مع بلاد السودان من منافسة البرتغاليين لهم فيها ومن التأثير بالأوضاع المضطربة في المغرب مما جعل محاور التجارة السودانية تميل نحو قواعد البرتغاليين على الأطلسي او نحو الشمال الشرقي حيث الجزائر وتونس وليبيا أما الفلاحة التي كانت توفر الغذاء لكل سكان المغرب فتقلص نطاقها لان الفلاحين هجروا حقولهم في المناطق غير الأمنة وقصدوا المناطق الأكثر أمنا لو كانت جبلية وأما الصناعة التي كانت لاتزال في طورها الحرفي فتأثرت هي الأخرى بما أصاب قطاعي الفلاحة والتجارة من أضرار وبالذات نا أصاب قطاع المدن التي كانت تحتضن الحرفيين وورشاتهم .

3- الناحية الاجتماعية:

كان لاضطراب الأحوال السياسية في المغرب لمدة طويلة أسوأ الأثر على الوضع الاجتماعي للسكان ويتجلى ذلك في حالة الفقر التي آل اليها الكثيرون والتي غدت الملمح الغالب للسكان ويتجلى ذلك في

حالة الفقر والتي غدت الملمح الغالب للسكان في المدن والقرى وهو ما يستخلصه القارئ لكتاب الوزان الذي وصف لنا فيه حالة السكان في المدن والقرى التي زارها في كل انحاء المغرب كما يتجلى في حركة الهجرة القسرية التي عرفها سكان المغرب في المناطق التي تعرضت للغزو البرتغالي والاسباني أو التي كانت هدفا لغاراته الى الجهات والمناطق الأكثر أمنا ولكن الأثر السيء للغزو الخارجي والتفكك الداخلي يظهر واضحا في تقلص قطاع المدن نتيجة الاحتلال أو التخريب الذي أصاب الكثير منها وتدهور معظم المدن الباقية نتيجة الذي كانت تعيش فيه وقد نجم عن ذلك ان اضحى اغلب سكان المغرب يعيشون في البوادي وفي الجبال رغم صعوبة الحياة فيها .

4- الناحية الثقافية:

ان الباحث يلاحظ ان كثيرا من المراكز العلمية التي كانت يزخر بها المغرب قد خلت وهذا نتيجة الاضطرابات الداخلية والهجمات الخارجية وتدهورت مراكز علمية أخرى نتيجة التهديد كما هو حال مدينة مراكش على سبيل المثال التي كانت تعيش تحت تهديد القبائل المجاورة لها وسلمت مدينة فاس التي لم تتعرض للغزو الخارجي وغدت مقصد العلماء والطلبة من المراكز الأخرى وحتى من الجزائر للاخذ والعطاء في مدارسها وجوامعها وزواياها العديدة واشتهرت كذلك مدينة تطوان التي أعاد المهاجرون الاندلسيون بناءها واستوطنوها مع علمائهم وطلبتهم وعلى الرغم من انتشار المساجد في ارياف المغرب وقراه فإنها كانت تعج بظواهر الجهل والبدع التي انتشرت في المغرب بعد تدهور الحياة العلمية والفكرية الذي عرفته منذ أواخر العهد المريني .

تلك كانت باختصار ملامح الوضع المتنازم الذي كان يعيشه المغرب زمن الوطاسيين وعشية بروز السعديين وشروعهم في العمل على إخراجهم من محن التمزق والتهديد الخارجي والتقهقر الاقتصادي والاجتماعي والثقافي .

ثانيا : ظهور وانهيار الدولة الوطاسية (1471 - 1554)

في خضم حملات الغزو الايبيري والتفكك الداخلي لدولة المرينيين برز الوطاسيون على المسرح السياسي وهم أبناء عمومة المرينيين ومعاونوهم في إدارة سلطتهم ولما هلك السلطان المريني أبو سعيد عثمان لم يترك سوى طفلا صغيرا فتدخل أبو زكرياء يحي الوطاسي ليفرض نفسه وصيا عليه وكان ذلك استحواذ الوطاسيين على السلطة بطريقة غير مباشرة باعتبارهم حجابا (1428 - 1458) وفي عهدهم اشتد

خطر النصارى واستولوا على سبتة وخربوا تطوان وأمام عجز الوطاسيين عن رد الخطر اشتد عود مشايخ الزوايا والاشراف في المقاومة وقد حاول الوطاسيون استغلال حركة جهاد الزوايا لفائدتهم فتزعموا الكفاح ضد البرتغاليين وفي عام 1458 تعرضت أسرة الوطاسيين لحملة تقتيل نفذها الملك عبد الحق الذي استعاد سلطته ونجى منهم محمد الشيخ الذي تحصن بأصيلا وجمع الغاضبين حوله وأمام فشل عبد الحق ومقتله عام 1465 فسح المجال أمام محمد الشيخ لفرض سلطته على منطقة واسعة من الجنوب لكنه لم يصمد في مواجهة البرتغاليين وفضل مهادنتهم وفي عهد خليفته محمد البرتغالي وأبو العباس احمد ازداد وضع الوطاسيين تازما ولم يعودوا قادرين على مجابهة النصارى وقد أرهقتهم الصراعات الداخلية وخاصة مع دولة اشراف الجنوب السعديين الذين سيطروا على مراكش عام 1525 ونجحوا في مزاحمة سلطة احمد الوطاسي وفي عام 1549 اندحر الوطاسيون في فاس وحاول أبو حسون الحفاظ على سلطتهم بمختلف السبل حتى انه استعان ب شارلكان ثم لجا الى حكام الجزائر العثمانيين الذين حملوه الى فاس ونصبوه سلطانا ولكن أبو حسون قتل بعد عام وبذلك انهارت سلطة الوطاسيين وسيطر السعديون على كامل مناطق المغرب الأقصى .

ثالثا : الدولة السعدية (1549-1621)

ينتسب السعديون الى أسرة عربية الأصل وتتسب الى بني سعد بن بكر بن هوزان قوم حليلة السعدية انتقل اوائلهم من ينبع بالحجاز الى درعة بجنوب المغرب واستوطنوا قرية تاكمارت في المائة السادسة الهجرية وكان الاعتقاد السائد لدى المغاربة انهم من الاشراف وقد ظل السعديون حتى مطلع القرن العاشر الهجري _السادس عشر الميلادي يحيون في المغرب حياة بسيطة دينية وعملية ولم يبرزوا على المسرح السياسي الا حين اشتدت وطأة البرتغاليين على سكان الجنوب المغربي والحقوا بهم اضرارا في انفسهم ومصالحهم الاقتصادية دون أن يتدخل الوطاسيون لحمايتهم فالتفتت انظار أهل الجنوب الى هؤلاء السعديين لقيادة صفوفهم ضد البرتغاليين بعد أن رفض المرابط ابن المبارك ان يتولى هذه المهمة ووجههم الى أبي عبد الله محمد عميد الأسرة السعدية الذي قبل أن يتولاها بعد اتصالات ومشاورات بينه وبين المرابط الانف الذكر وبينه وبين بني قومه وفقهاء السوس و أعيانه في سنة 915هـ-1509م وتمت المبايعة له في مدينة تدسي بالسوس في سنة 916هـ-1510م .

وتلقب أبو عبد الله بالقائم بأمر الله وقدمت له كل قبيلة بايعته عشرة من رجالها المقاتلين فبلغ المجموع 500 رجل مما يعني انه عدد القبائل التي بايعته كان خمسين قبيلة وكانت هذه القوة هي نواة الجيش السعدي النظامي وقد اسند قيادتها لابنه الأكبر احمد الاعرج وكان المبرر الأساسي لمبايعة السعديين هو الجهاد ضد البرتغاليين واعوانهم وبعد وفاة القائم بأمر الله انتقلت السلطة الى ولديه محمد الشيخ واحمد الاعرج وقد كافحا الأخيرين من اجل مقاومة البرتغاليين وزاحما الوطاسيين ثم دخل محمد الشيخ في نزاع مع أخيه احمد الاعرج وتمكن من دخول فاس عام 1549 وفي عام 1554 طرد أبو حسون من فاس وأصبح المؤسس الحقيقي للدولة السعدية .

وقد واجه محمد الشيخ أطماع العثمانيين ورفض عروضهم في الخضوع للدولة العثمانية وتحالف من اجل ذلك مع الاسبانيين وخطط اترك الجزائر لاغتياله فأوفدوا له مجموعة من الجند أوهمته بالفرار من الجزائر ولما ائتمنهم اغتالته عام 1557 و خلفه ابنه عبد الله الملقب بالغالب بالله ولكن اخوته نازعوه السلطة ففر ثلاثة منهم الى الاتراك ووصلا عبد المالك واحمد الى القسطنطينية طالبين دعم السلطان للوصول الى الحكم وقد اتبع الغالب بالله سياسة والده في التحالف مع الاسبان ضد الاتراك وشجع الانجليز على التجارة مع الموانئ المغربية ونظم مدينة فاس وترك لابنه محمد المتوكل دولة قوية متماسكة وبعد فتح تونس استعد الاتراك لتوجيه حملتهم الى المغرب بقيادة عبد المالك وأخوه أحمد ونجحا عام 1576 في مزاحمة نفوذ محمد المتوكل في الجنوب المراكشي ولجأ هذا الأخير الى الاسبان واستطاع ان يشجع ملك البرتغال دون سبستيان على دخول المغرب على راس عشرين الف رجل وقد استعد عبد المالك واحمد للمواجهة واستدرجا جيش البرتغال وفرقة المتوكل الى سبخة واد المخازن والحق بهما هزيمة منكرة وقد قتل سبيستيان والمتوكل غرقا في النهر كما توفي عبد المالك اثر اشتداد مرضه .

وبوفاة عبد المالك أجمع الناس على مبايعة أخيه أحمد الذي لقب بالمنصور وقد ساعده الانتصار في المعركة والحصول على غنائم وافرة والاستيلاء على مئات الاسرى الاسبان على بناء سمعة مرموقة وقد اضطر الى قمع تمرد جنده أكثر من مرة واحباط مؤامرات الزوايا وكبح جماح القبائل البربرية وكان المنصور عسكريا صارما ورجل دولة مثقفا تميزت مرحلة حكمه بالهدوء والرخاء وقد اهتم السلطان بالتجارة التي كانت نشيطة في عهده ونمى الأنشطة الصناعية واستعان باليهود والاندرلسيين وواصل حملات القرصنة وزاد في الجباية التي كان يستخلصها بحزم وكانت الإدارة تقوم على مجموع قبائل المخزن التي

تتحكم في مجموع المغرب وتقتطع الضرائب حيث قسم المغرب الى قسمين المغرب الرسمي (بلاد المخزن) ويحتوي على اراضي جماعة المسلمين الخاضعة للأداء العقاري والتي تسكنها القبائل العربية ويسير امرها المخزن والمغرب الأقصى المستقل (بلاد السبئية) الذي لم يتخلص من نفوذ السلطان الفعلي بل كان دائما على أهبة للانقضاض على بلاد المخزن وكان للسلطان بلاط عظيم الشأن يستقبل فيه الأجانب في أبهة كبيرة .

ومن إنجازات المنصور الخارجية التي اثارت اللغط قيامه بغزو السودان والذي اعتبره فتحا وقد اندفع لتجسيد المشروع طمعا في ذهب السودان ورغبة في التوسع فارسل جيشا ضخما عبر سجلماسة ووصل الى توات وقورارة ثم واصل زحفه الى مملكة سنغاي و رغم عروض التفاوض التي أطلقت إلا أن جيش المنصور أصر على المواجهة واستباح المنطقة نهبا وتهديما فكانت نهاية لهذه المملكة الإسلامية وبداية لهذه الفوضى والاضطراب .

ومنذ وفاة أحمد المنصور عام 1603 بدأت مرحلة التفكك نتيجة الافتتان على السلطة بين أبناء المنصور وهم زيدان ومحمد الشيخ وأبو فارس خلال الفترة 1603_1610م _ ثم امتدت الى أبنائهم الى أن قضى العلويون على نفوذهم نهائيا عام 1659 وأدى جو الاضطراب هذا الى نتائج وخيمة تمثلت في :

- مقتل الكثير من جيش المنصور النظامي والكثير من سكان مدينتي فاس ومراكش على الخصوص
- انقسام المغرب الى مملكتين شمالية عاصمتها فاس لمحمد الشيخ وبنيه وجنوبية عاصمتها مراكش لزيدان ثم لبنيه .

- اضمحلال المملكتين المتنازعتين مما هيئهما للسقوط وقد اختفت مملكة فاس في سنة 1627 على أيدي انصار المجاهد العياشي ومملكة مراكش على يدي كروم الحاج شيخ عرب الشبانات سنة 1659م .

- استئناف الاسبان غزوهم لموانئ المغرب وتمكنهم من احتلال ميناء العرائش بالتواطؤ مع محمد الشيخ في سنة 1610م ثم ميناء المعمورة في سنة 1614م وكانت للإنجليز والهولنديين أطماع في احتلال مواقع أخرى بعد ان سبقهم الاسبان الى المينائين المذكورين .
- تجدد نشاط القوى الدينية والقبلية وعملها على تقليص نفوذ السعديين في المملكتين والقضاء عليهما

وعلى تأسيس امارات لها هنا وهناك وهكذا يمكن القول أن المغرب الذب وحده محمد الشيخ السعدي في اواسط القرن السادس عشر الميلادي مال من جديد الى التجزؤ والانقسام في عهد أحفاده فعادت القوى الدينية والقبلية الى نشاطها على نطاق واسع قبل ان يتمكن أبناء الشريف بن علي من القضاء على كل الامارات التي أنشأتها تلك القوى على حساب دولة السعديين بعد ان انهكتها الفتن الداخلية بحيث لم تعد تقوى على محاربتها بل انهارت امامها نهائيا في سنة 1659 وبذلك دخل المغرب في طور الدولة العلوية الجديد .

رابعا : الدولة العلوية

في ظل ظروف الضعف التي دخل فيها المغرب الأقصى كان لابد من ظهور قيادة جديدة في الميدان فكان ظهور الاشراف العلويين في الجنوب وكان المولى الرشيد هو اول سلاطين العلويين في المغرب الأقصى تولى السلطة عام 1664 واستطاع بعزيمته ان يحتل عواصم المغرب الأربعة ويسيطر على فاس وتافيلات وتارودانت ومراكش وتمكن بعد جهود مضمينة من وضع أسس الدولة القوية وقد ساعده على ذلك شجاعته ودهاؤه وقسوته .

وبصورة مفاجئة لقي المولى رشيد حتفه في ثاني أيام عيد الأضحى (مارس 1672) فبادر ابنه الأصغر المولى إسماعيل لطلب البيعة لنفسه وتمكن من الاستيلاء على فاس وكسب اعتراف العلماء والاشراف بحكمه وقد واجهته معارضة شديدة من قبل ثلاثة من اخوته وأبناء أخيه احمد بن محرز الذين استقلوا ببعض الأقاليم وتلقوا التشجيع من العثمانيين في الجزائر واضطر المولى إسماعيل لمهادنتهم فاعترف بأحدهم حاكما على مراكش وبآخر حاكما على سوس ثم خطط للتخلص منه وقامت ضده ثورات أخرى منها ثورة ابن عمه المولى أحمد بن محرز في تازة وثورة الريف وثورة فاس وثورة القبائل وقد قمع المولى إسماعيل هذه الثورات بقسوة ولم تأخذه رافة حتى بأولاده وحتى يتأكد من خضوع القبائل كان يقيم القلاع في مناطقها فأقام قلاعا تراقب مناطق التمرد التقليدية (جبال الاطلس الأوسط بني سنانس ملوية) وقلاع تهيمن على طرق المواصلات الرئيسية (طرق تازا وجدة فاس مراكش تافيلالت) حفاضا على الأمن وتأمينا للقوافل التجارية .